من تراب الطريق (٤٥٣)

الذكاء الإنساني: الاستعداد والحصاد (*)

لا يختلف أحد على أن العقل بملكاته وقدراته ـ هو أميز ما تميّز به الإنسان عن باقى المخلوقات ، وأن الإنسان على قدر من الذكاء لا يدانيه فيه أحد على وجه الأرض .

والذكاء هو الاستعداد الداخلى الذى يواجه به الإنسان ما يعرض له فى الحياة وظروفها وأحداثها .. وهذه المواجهة تجرى بما يناسبها من استعداد وذكاء وملكات ، وتتواكب طرديًا وعكسيًا مع مقدار الذكاء الذى يتفاوت من شخص لآخر ، ولا يوجد ولم يوجد لدى جميع الناس بمقدار واحد أو بقوة واحدة ، وتتجلى هذه الفوارق حين نقارن ذكاء البدائى بأوساط الناس ، أو حين نقارن ذكاء هؤلاء بذكاء أمثال نيوتن أو أرشميدس أو أينشتين !

واختيارات الشخص ـ أى شخص ـ تتبع ذكاءه ، وهذه الاختيارات حتى لدى الأذكياء دائما احتمالية .. بمعنى أنها مقارنة وترجيح وتفضيل احتمال على غيره من الاحتمالات . ومن الملحوظ أن الذكاء يختلط بالمهارات ، والإتقان هو ثمرة وعلى قدر هذا الاختلاط .. فإذا كان البشر بعامة أذكياء فى إشباع حاجاتهم وتحقيق أغراضهم والوصول إلى غاياتهم أيًا كانت ، فإنهم لا يتقنون فى كل الأحوال أداء ما يفعلونه أو يؤثرونه أو يفضلونه !

ربما لأن الإتقان يحتاج إلى الجهد والمثابرة والمعاناة ، ومن ثم فإن الرغبة فى تحقيقه تقتطع بشكل أو بآخر من راحة أو حرية الساعى إلى الإتقان .

(*) المال ٢/ ٦/ ٢٠١٠ .

فالإتقان يحتاج بالضرورة إلى جهد واهتمام ، وإلى المزيد من الدقة فى الأداء ، وإلى تركيز الخيال وتقييد الحركة بقيود ضاغطة مما لا يرحب به أو يقوى عليه غالبية الناس !

وأنت تستطيع أن تراقب هذا الإتقان ـ بهذا المعنى ـ فى بعض النباتات من الأشجار إلى الطحالب والأعشاب ، وفى الفيروسات والبكتريا والفطريات ، وفى الحشرات والطيور ، وفى الثدييات والحيوانات العليا .

وربما كان وجود الاستعداد للإتقان قد سبق وجود الاستعداد للذكاء فى قاموس الحياة ، وهو قاموس بالغ السعة يبدو أنه يجمع عناصره فيتراكم جديدها على قديمها ، وربما كان هذا التراكم والتراكب ضمن خطوات الكون والحياة فى النمو والترقى .. وقد نرى آية ذلك فى «الأجهزة» التى تؤدى وظائفها آليا بلا إرادة أو اختيار لدى كافة المخلوقات من إنسان وطير وحيوان .

ومن قديم الزمن ، عرف الإنسان الآلة التى تخضع فى تشغيلها أو أدائها لإرادته وقوته ، ثم عرف الآلة التى لا تخضع للقوة أو الإرادة إلاّ من بعيد .. أو من بعيد جدا . لأن هذه الآلة من اختراع إنسان غيره ، ومن صناعة وإنتاج إنسان آخر .. ومن ثم فلا تتدخل إرادة من يستعملها فى مستوى دقتها أو أدائها ، وإنما يكون ذلك موافقا لما كان عليه إتقان مبتكرها أو صانعها ومنتجها . بل لم يعد إتقان أداء الآلة فى يد صاحب الآلة أو الماكينة أو طوع إرادته واختياره وتحت سيطرة ذكائه .. فلا شىء من ذلك يتداخل فيه راكب أو قائد أو مستعمل السيارة أو القطار أو الطائرة .. لأن الإتقان قد سبق من قبل ـ إن كان ـ إلى السيارة أو الطائرة أو القطار عند الصناعة والإنتاج ..

ولذلك فإن مهارة القائد أو المدير تقتصر على إتقان أو عدم إتقان التشغيل .. دون مواصفات الآلة أو الماكينة التى لازمها درجة ماهى عليه من إتقان منذ تصنيعها وإنتاجها . وكل ما على مدير الآلة هو مراعاة لوازمها وأوضاعها المرسومة لها مقدمًا ، ومن ثم بات مالك الآلة ومن يستخدمها ومن يشرف عليها ومن ينتفع بها أو بإنتاجها ـ بات يدفع أو يستأدى أو ينتفع بدرجة إتقانها التى لا دخل له فيها .

قلت فيما سلف إننا إذا أمعنا النظر فى عمار ومدنيّة البشر وكما يبدو فى الأحياء الفاخرة من المدن الكبرى فى العالم ـ أو كما يبدو فى موانيها الزاهرة الباهرة أو فى مطاراتها أو محطاتها أو فى معالمها الباذخة من قصور ودور للحكم ومتاحف ومعاهد ومكاتب أو فى مرافقها من فاخر الفنادق والمطاعم والملاهى أو فى دفاعاتها التى تتحرك مع ضخامتها الهائلة كالساعات الدقيقة .. إذا أمعنا النظر فى هذا كله وأشباهه ـ وجدنا أن ذلك ومثله ـ ليس ذكاء من أجل الذكاء ولا هو ترحيب بإتقان يدرك ويقدر قيمته ويقابلها بما يليق بها أو لها .. وإنما هو كله أو جله وسيلة وشكل وقشرة من أجل اجتذاب النفع والربح والرواج لدى غالبية الآدميين الذين تجذبهم هذه الصور المجيدة المتقنة .. وهى تتقبلهم طالما كان معهم من المال ما يكفى للربح من قبلهم ، بغض النظر عن حظهم من الذكاء أو الذوق أو حتى الفهم أوالترقى والتطور !

هكذا يصنع ذكاء البشر أوعية وأكسية لاستيعاب أحلامهم وأشواقهم ومحاكاتهم وغرورهم كجماعات وأفراد ليزدادوا ـ لا ذكاءً على ذكاء ـ وإنما ثراءً وشهرة .. بهما يتحقق النفوذ فى أى جماعة .. فما فى تكوين مدنيتنا الحالية هو قشرة سطحية ضخمة من الذكاء تستخدم إتقان المتقنين فى جذب

ملايين الناس من كل حدب وصوب ، من الأذكياء وغير الأذكياء ، ومن الأغبياء وأشباه الأغبياء !

وهذا أخطاره هائلة لا تكاد تحصى على الحمقى وعلى الأذكياء معا .

وذلك الميل البشرى الغريزى إلى الكسوة بلباس أو ظاهر أو قشرة أكثر طلاوة وبريقا ، يبدو متقدما فى عيوننا أو متحضرا طبقا لتعبيرنا الحالى .. هذا الميل الذى يحشد ما يستطيعه ليسترعى الأنظار والإعجاب ، ويلفت الأعين ويصرفها صرفًا ضريرًا عن التركيز على البشاعات الموجودة والمستشرية نتيجة للغفلة والتخلف السائدين بين الناس .. هذا الواقع المرّ شىء معروف يتردد ذكره وأثره من آلاف السنين فيما نسميه بالحضارات القديمة أو السالفة أو نسميه باللياقة والقيمة بالنسبة للأفراد !

*****